تزكية الرسل وتكذيب مخالفيهم

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(ثُمَّ رُسُلُه صَادِقُونَ مُصَدَّقُون، بِخِلاَفِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لاَ يَعْلَمُونَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصافات: ١٨٠-١٨٢]. فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ؛ لِسَلاَمَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ).

(الشرح)

هذا من حسن ترتيب المؤلف-رحمه الله-، فإنه لما قرر وجوب قبول خبر الله، زكّى الواسطة في التبليغ، وهم الرسل الكرام؛ من الملائكة والناس، الذين نزل عليهم الوحي، فأراد أن يوثّق هذه الحلقة، حتى لا يطعن طاعن في ثبوت الخبر.

قوله: (ثُمَّ رُسُلُه): الرسل جمع رسول، **وهم نوعان:**

النوع الأول: رسول بشري.

النوع الثاني: رسول ملكي.

قال الله تعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [الحج: ٧٥]، وقد زكّى الله الرسول الملكي، بقوله: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} [التكوير: ١٩- ٢١]، وزكى الرسول البشري، بقوله: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [الحاقة: ٤٠- ٤٢]، فنفى عنه الكهانة، والشعر، التي يُزخرف بها القول، وبيّن مصدره، بقوله: {تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[الحاقة: ٤٣].

قوله: (صَادِقُونَ): أي فيما أخبروا به الناس.

قوله: (مُصَدَّقُون): فيما أُخبروا به من الله، وفي بعض النسخ (مصدوقون)؛ فالصدق يكتنفهم في التحمل والأداء، ففي هذا تزكية لرسل الله تعالى؛ فهم، صلوات الله وسلامه عليهم، قد بلّغوا الرسالة، وأدوا الأمانة، ونصحوا، فيما كُلفوا به من البلاغ.

ومن دلائل النبوة: أن الله تعالى يُقر النبي ﷺ على ما يتكلم به، وينسبه إليه، بل يؤيده، وينصره، وينقله من نصر إلى نصر، ومن هزيمة إلى نصر، ويكثر أتباعه، ويمكن لهم في الأرض، وهذا يدل على تصديقه له، ولو كان غير ذلك، لكان كما أخبر تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} [الحاقة: ٤٤-٤٧].

قوله: (بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ): القول على الله بغير علم من أعظم الذنوب، كما قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٣]، وهذا من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى؛ حتى جعله فوق الشرك؛ فالقول على الله بغير علم أعظم الذنوب.

والقائلون على الله بغير علم أصناف كثر:

الصنف الأول: الأفاكون الكذابون. قال تعالى: {إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [النحل: ١٠٥].

الصنف الثاني: المنجمون، الذين يدعون الاستدلال بحركة الأجرام السماوية على الحوادث الأرضية.

الصنف الثالث: السحرة، الذين يفترون الكذب ويستعينون بالجن.

الصنف الرابع: الكهان، الذين يدّعون الإخبار بالمغيبات والتنبؤ بالمستقبل.

الصنف الخامس: المتنبئون الكذابون، الذين يزعمون أنهم ينزل عليهم الوحي.

الصنف السادس: الرؤساء الجهال، الذين يقولون على الله بغير علم، كما أخبر النبي، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ ، ولَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حتّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا؛ اتّخذَ النّاسُ رُؤُوسًا جُهّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَضَلّوا وأَضَلّوا)[1]، وهؤلاء إما أن يكون باعثهم الجهل، وإما أن يكون باعثهم الهوى، وحب الرئاسة؛ فمنهم من يقول بلا علم، ومنهم من يعلم، ولكن يحمله الهوى على القول على الله بغير علم.

الصنف السابع: المتهوكون، الذين يحرفون الكلم عن مواضعه في باب العقائد، وهم المتكلمون، الذين نَحّو طريقة أهل السنة والجماعة القائمة في الاعتماد على الوحيين؛ الكتاب والسنة، وسلكوا مسلك المناطقة والفلاسفة؛ فإن المنطق والفلسفة علمان كانا موجودين في الأمم التي قبلنا، لا سيما اليونان، فرتبوا مقدمات منطقية ليتوصلوا بها إلى النتائج والحقائق؛ فتلقاهما المتكلمون من الجهمية والمعتزلة، ومن تأثر بهم من الصفاتية وقالوا: العقل مقدم على النقل، النقل تابع للعقل، العقل سيد، والنقل مُسود، وقلبوا القضية؛ فلم يستنيروا بنور الله، بل حكّموا عقولهم في المسائل العقدية؛ فهؤلاء يَدخلون، أيضاً، في جملة الذين يقولون على الله مالا يعلمون؛ تجدهم يقولون: ليس المراد بكذا كذا، بل المراد كذا؛ بلا أثارة من علم، ولو سألت أحدًا من المتكلمين: من أين لك أن استوى بمعنى استولى؟ من أين لك أن الوجه بمعنى الثواب؟ من أين لك أن اليد

---

[1] أخرجه البخاري: رقم (١٠٠)، ومسلم: رقم (٢٦٧٣).

بمعنى القدرة أو النعمة؟ هل تروي في ذلك حديثًا عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أو أثرًا عن صاحب، أو عن تابع؟ لم تجد شيئًا! ولو كان عندهم شيء ما ادخروه، لكنهم يقولون: نحن نجتهد في البحث عن المعاني اللائقة بالله!

سبحان الله!

أأنتم أعلم بالله من الله، ومن رسول الله؟!

أأنتم أصدق قيلًا من الله، ومن رسول الله؟!

أأنتم أحسن حديثًا من الله، ومن رسول الله؟!

أأنتم أغير على الله من الله، ومن رسول الله؟!

أأنتم أنصح للناس من الله، ومن رسول الله؟!

هذا المسلك ضرب من القول على الله بغير علم؛ فلهذا برأ المصنف-رحمه الله-أهل السنة والجماعة منه، كما برأ الله رسله من القول عليه بغير علم.

قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾: سبحان: اسم مصدر بمعنى تنزيهًا لله.

قوله: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾: هذا من إضافة الموصوف إلى الصفة، وأصل معنى العزة: الشدة، تقول العرب: أرض عَزَاز؛ أي شديدة، ولا زال الناس عندنا يقولون: أرض عزاء، من نفس الاشتقاق، وهي الأرض الصلبة القوية المتماسكة، والله تعالى عزيز في ذاته، وفي أسمائه وفي صفاته؛ فله العزة المطلقة-سبحانه-؛ عزة الامتناع، وعزة الغلبة، وعزة القدرة.

قوله: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾: أي عما يصفه القائلون عليه بغير علم.

قوله: {وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ}: هذا دعاء بالسلامة لرُسل الله تعالى؛ السلامة لذواتهم، والسلامة لدينهم من أن يخالطه وحي الشياطين.

قوله: {وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}: ابتدأ بالتنزيه، وختم بالتحميد؛ فجمعت الآية التنزيه والتحميد، وفي الحديث، (وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلّهِ تَمْلَآنِ، أَوْ تَمْلأُ، مَا بَيْنَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)[١].

قوله: (فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ): المخالفون للرسل تارة يصفونه بصفات العيب والنقص ومماثلة المخلوقين، أو بتعطيله عما ينبغي له من الأسماء الحسنى، والصفات العلى، أما رسل الله تعالى فقد سلمت مقالاتهم من كل شائبة نقصٍ، أو عيبٍ، أو تمثيلٍ، أو تعطيلٍ، في حق الله

قوله: {وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ}: لقوله: {وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} [الصافات: ١٨١]. والسلامُ إما حكم لهم بالسلامة، أو تحية لهم.

قوله: (لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ): اللام للتعليل، والجزاء من جنس العمل.

بقي في هذا المقام أن نضيف أمرًا؛ فنقول: وأصحاب رسول الله ﷺ صادقون مصدقون؛ صادقون فيما أخبروا به من بعدهم، مصدقون فيما أخبرهم به نبينا ﷺ؛ قال المصنف، رحمه الله، في الفتوى الحموية: (ثم من المحال أيضًا أن تكون القرون الفاضلة؛ القرن الذي بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه

---

[١] أخرجه مسلم: رقم (٢٢٣).

وسلم، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، كانوا غير عالمين وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين، لأن ضد ذلك إما عدم العلم والقول، وإما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق. وكلاهما ممتنع.

أما الأول، فلأن من في قلبه أدنى حياة وطلب للعلم، أو نهمة في العبادة، يكون البحث عن هذا الباب والسؤال عنه ومعرفة الحق فيه، أكبر مقاصده وأعظم مطالبه، أعني: بيان ما ينبغي اعتقاده، لا معرفة كيفية الرب وصفاته، وليست النفوس الصحيحة إلى شيء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر.

وهذا أمر معلوم بالفطرة الوجدية، فكيف يتصور مع قيام هذا المقتضي الذي هو من أقوى المقتضِيات أن يتخلف عنه مقتضاه في أولئك السادة في مجموع عصورهم! هذا لا يكاد يقع في أبلد الخلق، وأشدهم إعراضًا عن الله، وأعظمهم إكبابًا على طلب الدنيا، والغفلة عن ذكر الله، فكيف يقع من أولئك؟!

وأما كونهم كانوا معتقدين فيه غير الحق أو قائليه، فهذا لا يعتقده مسلم ولا عاقل عرف حال القوم. ثم الكلام عنهم في هذا الباب أكثر من أن يمكن سطره في هذه الفتوى أو أضعافها، يعرف ذلك من طلبه وتتبعه)[١].

وقد أثنى عليهم الله في كتابه، وشهد لهم نبيه ﷺ بأنهم خير القرون، فقال: (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي)[٢] ؛ فيمتنع، ويستحيل استحالة تامة في حق الصحابة، أن يكونوا جاهلين بالحق، أو ساكتين عن الحق، أو قائلين بالباطل؛ فتعين أن يكونوا

[١] الفتوى الحموية الكبرى: (١٨٢-١٨٥).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٢٦٥٢)، ومسلم: رقم (٢٥٣٣).

قائلين بالحق، وهذا هو الواقع؛ فإن أصحاب نبينا ﷺ قد تحملوا هذا الدين، ونقلوه إلى من بعدهم، ولم يكتموا منه حرفاً واحداً؛ كما في حديث مُعاذ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ، قَالَ: (كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ: يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ، فَيَتَّكِلُوا) [١] (وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا) [٢].

وإذا كان الأمر كذلك، فناتجه أن باب العلم بالله، وأسمائه وصفاته، أوثق أبواب الدين إحكاماً، وإتقاناً، وبياناً من عند الله، ومن عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ومن عند صحابة رسول الله ﷺ ، حتى وصل إلينا.

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٢٨٥٦)، ومسلم: رقم (٣٠).

٢) أخرجه البخاري: رقم (١٢٨)، ومسلم: رقم (٣٢).

الاستدلال على إثبات أسماء الله وصفاته من القرآن الكريم

الجمع بين النفي والإثبات في صفات الله تعالى

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ. فَلاَ عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةُ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ؛ فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَالِحِينَ).

(الشرح)

أشار المصنف -رحمه الله-إلى ضابطٍ، أو قاعدةٍ من قواعد الأسماء والصفات، وهو أن الله تعرف إلى عباده بالنفي والإثبات، والنفي معروف، والإثبات معروفٌ في اللغة؛ الإثبات أمرٌ وجودي، والنفي أمرٌ عدمي.

وأي قضية، من القضايا، لا تتبين إلا بإثبات حقيقتها، ونفي ما يضادها، وهذا جارٍ في كل شيء؛ فإنك لا تتمكن من معرفة شيء من الأشياء إلا بالجمع بين النفي والإثبات، فلو أنك، مثلًا، أردت أن تشتري سلعةً ما، كجهاز حاسب، أو جوال، أو غير ذلك، فإنك تُخبر عن صفاته ومميزاته، فيقال لك: يمتاز بكذا وكذا، وليس بكذا وكذا، ولو تقدم إنسانٌ إلى وظيفة، أو تقدم خاطب لامرأة، أو نحو ذلك، جرى السؤال عن الصفات الوجودية، وعن الصفات العدمية؛ فيقال مثلًا: هو كذا وكذا، من الصفات الإيجابية، وليس بكذا وكذا، من الصفات السلبية؛ فلا تكتمل المعرفة إلا بالجمع بين النفي والإثبات.

فلما علم الله تعالى من حال عباده أنه لا يحصل لهم العلم إلا بالجمع بين الأمرين، تعرف إليهم بالنفي والإثبات؛ فتارةً يثبت لنفسه أسماء الكمال، وصفات الجلال، وتارةً ينزه نفسه عن صفات النقص، والعيب، ومماثلة المخلوقين، وتارةً يجمع بين الأسلوبين في نصٍ واحدٍ، كما سيتبين في الأمثلة.

قوله: (قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ): الواقع أن الأسماء كلها ثبوتية، وليس هناك أسماء منفية، أما الصفات فهي التي تنقسم إلى صفاتٍ ثبوتية، وصفاتٍ منفية؛ فمن الصفات الثبوتية: العلم والقدرة، والسمع والبصر، ومن الصفات المنفية: أضدادها؛ كالجهل، والعجز، والصمم، والعمى؛

ففي العبارة شيءٌ من إجمال؛ فالنفي والإثبات يتعلقان بالصفات، أما الأسماء فكلها ثبوتية.

قوله: (**فَلاَ عُدُولَ**): أي لا ميل.

قوله: (**لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ**): لأنهم على خطاهم يسيرون؛ قال تعالى بعد ذكرهم: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠].

قوله: (**فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ**): المشار إليه ما جاء به المرسلون، والصراط: هو الطريق الواضح، جمع بين الوضوح والاستقامة، وهو الذي ندعو الله تعالى في كل ركعة أن يهدينا إليه، {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: ٦]. وهو الصراط المعنوي، ومن استقام في الدنيا على الصراط المعنوي، كان حقيقًا وحريًا يوم القيامة أن يستقيم على الصراط الحسي، الذي يُضرب على متن جهنم، ومن كان في هذه الحياة الدنيا سريعًا مبادرًا للخيرات في الصراط المعنوي، كان يوم القيامة حقيقًا وحريًا أن يكون سريعًا على الصراط الحسي، الذي يُضرب على متن جهنم؛ سواءً بسواء.

والصراط قد يضاف إلى الله، وقد يضاف إلى خلقه، فيقال: {صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [الشورى: ٥٣]، باعتبار أن الله هو الذي نصبه، وقد يضاف إلى سالكيه كقوله: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} [الفاتحة: ٧]، وقد عرّفه هنا بالثاني.

قوله: (صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَالِحِينَ):

هؤلاء هم طبقات المنعم عليهم، الذين فصّلهم الله تعالى بقوله: {فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً} [النساء: ٦٩]، وهو المعنى الذي قصده النبي، صلى الله عليه وسلم، عند قبض روحه، فكان يشير بيده ويقول: (اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى)[١]، وهم:

١-**النَّبِيّون:** أعلى هذه الطبقات، والنبوة منحة ربانية واصطفاء إلهي، لا تُنال بالكسب، ولا بالرياضة، ولا بالمجاهدة؛ وإنما هي محض اصطفاء من الله: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [الحج: ٧٥]، {اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام: ١٢٤]، كما تقدم. وقد خُتمت النبوة ببعثة نبينا محمد ﷺ؛ كما قال تعالى: {وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: ٤٠].

وأنبياء الله يتفاضلون: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [البقرة: ٢٥٣]، فأفضل الأنبياء والمرسلين: أولو العزم من الرسل، وهم، على الراجح، الخمسة الذين ذكرهم الله مجتمعين، في موضعين في كتابه: في سورة الأحزاب، قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا} [الأحزاب: ٧]، وفي سورة الشورى، قال تعالى: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ} [الشورى: ١٣].

---

[١] أخرجه البخاري: رقم (٤٤٦٣)، ومسلم: رقم (٢٤٤٤).

وأفضل هؤلاء الخمسة محمد ﷺ ؛ لقوله: [أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلَا فَخْرَ][1]، يليه في الرتبة إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، وكلاهما خليلان للرحمن، ثم يليهما في الرتبة موسى، عليه السلام، ثم اُختلف في نوحٍ وعيسى؛ أيهما يُقدم.

قال السيوطي[2]:

وخُص من بينهم محمدًا ... بأنه خاتمهم والمبتدا
وبعثه للثقلين أجمعين ... وفضله على جميع العالمين
يليه إبراهيم ثم موسى ... ونوح والروح الكريم عيسى
وهم أولو العزم فمرسلو الأنام ... فالأنبياء فالملائك الكرام

فإن قال قائل: فما موقفنا من النصوص الواردة في النهي عن المفاضلة والتخيير بين الأنبياء؛ كقول النبي ﷺ: (لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ)[3]، وقوله: (مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى)[4]؟

فالجواب: إن هذا النهي فيما إذا وقعت المفاضلة على سبيل المفاخرة المجردة، أو على سبيل التنقص، والعيب للطرف الآخر، أما إذا كانت على سبيل الإخبار، وحكاية الحال؛ فلا شك أن الله قد فاضل بين أنبيائه ورسله.

---

[1] أخرجه الترمذي: رقم (٣٦١٥).

[2] الكوكب الساطع.

[3] أخرجه البخاري: رقم (٢٤١٢)، ومسلم: رقم (٢٣٧٤).

[4] أخرجه البخاري: رقم (٢٣٧٧)، ومسلم: رقم (٢٣٧٦).

٢-**الصِدِّيقُون**: جمع صدِّيق، وهي صيغة مبالغة، وهو الذي بلـغ الغايـة في التصديق؛ لأن التصديق درجات، ليس التصديق، كما تزعم المرجئة، شيئًا واحدًا، إما أن يُوجد كله، أو يُعدَم كله! فالناس ليسوا سواء في التصديق؛ من الناس مَن تصديقه ثابت كالجبال الراسيات، الراسخات، ومنهم من تصديقه في مهب الريح؛ لو عرضت له فتنة لعصفت به؛ قال الله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الحج: ١١]، وقال: {فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت: ٣]. ولهذا سُمي أبو بكر، رضي الله عنه، صديقًا؛ لقوة تصديقه، ويُقال: إنه سمي بذلك لما وقع حادث الإسراء والمعراج، فجاءت قريش إليه، وقالت: (هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ قَالَ: أَوَقَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَئِنْ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ، قَالُوا: أَوَ تُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ فِي مَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ أُصَدِّقُهُ فِي خَبَرِ السَّمَاءِ فِي غُدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)[١].

ومما يدل على صدِّيقيته، وصدِّيقية عمر، رضي الله عنهما، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، حدث مرةً فقال: (بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ:

---

[١] أخرجه الحاكم في المستدرك: رقم (٤٤٥٨)، والبيهقي في دلائل النبوة: (٢/ ٣٦٠)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره: رقم (١٥٨٣) مرسلاً.
قال الألباني، في السلسلة الصحيحة: بعد ذكر رواية مرسلة عن أبي سلمة، وهذا سند صحيح مرسل، وشاهد قوي لموصول عائشة (١/٦١٦).

إِنّا لَمْ نُخلَقْ لِهَذَا، إِنّما خُلِقنَا لِلْحرْث " فَقَالَ النّاسُ: سُبْحَانَ اللّه بَقَرةٌ تَكَلّمُ، فَقَالَ: " فَإِنّي أُومِنُ بِهَذَا، أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمرُ وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذّئْبُ، فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ، فَطَلَبَ حَتّى كَأَنّهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الذّئبُ هَذَا: اسْتَنْقَذْتَهَا مِنّي، فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السّبُعِ، يَوْمَ لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي " فَقَالَ النّاسُ: سُبْحَانَ اللّهِ ذِئْبٌ يَتَكَلّمُ، قَالَ: «فَإِنّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»(١).

فالتصديق درجات ومراتب ومنازل؛ يتفاوت الناس فيه تفاوتًا كبيرًا، فلهذا قال تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم: ٢٧]، فكلما كان العبد قوي الإيمان، راسخ التصديق، ثبته الله عند سؤال الملكين له في قبره: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فيقول: ربي الله، والإسلام ديني، ونبيي محمد. وأما الكافر، أو المرتاب، أو الشاك، فيضطرب، ويقول: هاه، هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته؛ كان قد سمع بإذنيه، لكنه لم يتغلغل ويتجذر في قلبه.

٣-**الشُّهَدَاءُ**: جمع شهيد، والشهيد من قُتل في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا، ولما كان هذا أمرًا خفيًا؛ لا يطلع عليه إلا رب البريات، سبحانه وبحمده، نهى النبي ﷺ أن يقال: فلانٌ شهيد؛ لأننا لا نعلم عن خبيئة قلبه؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ: أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ: (وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ، وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ إِلّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ،

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣٤٧١).

وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ)[١]، وعَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: (مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)[٢].

ولا شك أن الجود بالنفس، أقصى غاية الجود، فإذا كان الإنسان يجود بنفسه لله، فهذه مرتبةٌ عليا، تدل على كمال إيمان صاحبها، وعلو مرتبته؛ فلهذا تكاثرت الأحاديث في فضل الشهادة في سبيل الله، وسميت "شهادة"؛ لأنه لما جاد بروحه، وعفّر وجهه بالتراب لإعلاء كلمة الله، كان شهادة عملية بأن دين الله هو الحق.

٤-**الصَّالِحُون:** جمع صالح، وهو الممتثل لأمر الله المجتنب لنهيه، وضدهم المفسدون؛

فعلى العبد المؤمن أن يختار لنفسه، ويطمح إلى إحدى المراتب الثلاث: الصديقية، أو الشهادة، أو الصلاح؛ هذه مراتب المنعم عليهم، ويسأل الله تعالى أن يلحقه بهم.

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٢٨٠٣)، وترجم البخاري: (بَابُ لَا يَقُولُ فُلَانٌ شَهِيدٌ)، (٤/ ٣٧).

٢ أخرجه البخاري: رقم (١٢٣)، ومسلم: رقم (١٩٠٤).